القومية العربية
عند
الشاعر القروى

د. عبد الحميد هلال عبد العزيز

الشاعر القروى : رشيد سليم خورى من أعلام شعراء المهاجر الجنوبى ، ولد بقرية بربارة فى الجنوب اللبنانى سنة ١٨٨٧م ، ثم هاجر إلى أمريكا الجنوبية ، حيث استقر فى البرازيل عام ١٩١٣ ، وبقى فى المهاجر قرابة نصف قرن من الزمان لم ينس عروبته ، ولم يفرط فى لغته ، وأنشد معظم أشعار ديوانه فى الوطنية والقومية العربية ، فلم يزده الاغتراب والبعاد إلا عشقا لوطنه ، وإخلاصا لأمته ، وتشبثا بقوميته . ولقد ظل يحلم بالعودة حتى أتيحت له فى ظل الجمهورية العربية المتحدة ، وبمعونتها سنة ١٩٥٨م ، وكانت فرحته فرحتين : فرحة العودة إلى الوطن ، وفرحة قيام الوحدة بين مصر وسورية وقتذاك التى أمل فيها أن تكون نواة لوحدة كاملة تجمع شمل الأمة العربية كلها .

عاد وهو يهتف :

بنت العروبة هيئى كفنى ... أنا عائد لأموت فى وطنى
أأجود من خلف البحار له ... بالروح ، ثم أضن بالبدن ؟!

وظل يقيم فى وطنه العربى الحبيب فى مسقط رأسه بلبنان فى بيت بنته له دولة الوحدة — حتى الآن .

وهو يزاول نشاطه الشعرى بقدر ماتسمح له به سنه المتقدمة ، ومن أبلغ ماأنشده حديثا قصيدة بعنوان : (المدافع الخرساء) يحمل فيها على حالة

الركود الحزبى بين العرب وإسرائيل بعد سنة ١٩٦٧م ، وقصيدة : (ألامهات اسقى نفطا) يتغنى فيها بنصر رمضان المظيم ١٣٩٣هـ (أكتوبر ١٩٧٣م) .

ولعل فرصة تتاح فيما يستقبل من الأيام لعرض هاتين القصيدتين .

أما الآن فيكفينا الحديث عن القومية العربية فى شعره .

القومية العربية غرض الأغراض عند الشاعر القروى ، وهى مركز الدائرة الذى يدور حوله كل شعره ، إنها تطالعنا فى كل مجال ، ونعثر عليها بلا عناء فى شعره ، فقد يعقد لواء القصيدة للغزل ، أو المدح ، أو لوصف الطبيعة ، أو للرثاء .. أولما شئت من الأغراض . لكنه لايلبث أن يعرج على القومية العربية يتغنى بها ، ويسخر قصيدته لها .

هذا صديقه : عبد اللطيف الخشن يرزق بغلام فينشد مهنئا فماذا يقول ؟

وحد به الاسلام غير مميز شيعيه فى الحب عن سنيه
وانفع به وطن الجدود مقربا ما بين مسلمه ونصرانيه(١) .

إنه ينظر إلى القومية العربية ، والوحدة ، فليكن هذا الغلام عامل وحدة تجمع العرب أجمعين . مسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ومسيحيين أيضا .

ويغبط صديقا له لأنه حظى بمطلبه لما فاز بعروسه ، فتقفز إلى ذهنه على الفور سورية التى كانت وقتذاك مازالت ترزح تحت الاستعمار فيسجل هذه الأمنية القومية التى خطرت على باله وهو يهنىء عروسين :

ته على الخطاب يا أسعد خاطب نلت (فرجينى) وكم قبلك خائب
كل ما تطلب يا (سعيد) تنل ليتك استقلال سورية طالب (٢)

---

(١) الديوان ص ٤٧٢ (٢) الديوان ص ٤٧٨

ولا يلهيه عن الأوطان لاه ، فهو وإن كان من الذين تذيبهم شعل الغرام إلا أن هذه الشعل تذوب بدورها أمام ذكر الوطن :

نحن الألى شعل الغرام تذيبنا ... وتذوب ساعة ذكرنا الأوطانا
أما السلام فإننا أعداؤه ... حتى يدين بحبه أقوانا
لم يعترف حر بانسانية ... إلا إذا اعترفت به إنسانا(١)

فى أى مناسبة يصوغ هذه المعانى ؟ إنه يبدأ قصيدته بأن طلب من حبيبته :

لمياء هاتى العود نبك صبانا ... راح الخريف بوردنا ونداما

يبكى صباحيه وورد نداه ، فقد ذهب بها الخريف ، ولكن هذا الخريف أعجز عن أن يمتد لعاطفته القومية ، فهى شابة على الدوام ، بل تزداد شبابا مع تقدم العمر ، وتجدد الأحداث .

والروح القومية عنده روح أصيلة ، قويت حتى ملكت عليه شعوره وحسه وقلبه ، وأنه ليدفعه واقع قومه إلى اليأس ، ولكنه لا يستسلم له ، بل يبحث عن بارقة أمل يتشبث بها علها تبدد هذا اليأس الطارىء ، ويساعده إيمانه القوى بقوميته على انتصار الأمل ، وانقشاع اليأس .

يبذل النصح لقومه حتى يهتدوا إلى طريق الإستقلال :

فقل لشعب رام أن يستقل ... ليس وراء اليأس غير الفشل
وإنما ينقل هذا الجبل ... بالهمة القعساء لا بالكسل
والعزم . لا إيمان أهل الخلود

ولكن الذين ضاع فيهم كل نصح سدى ، وضلوا بذلك سبيل الهدى كثيرون ، لذا قد يبلغ منه اليأس مبلغاً تند معه هذه الصرخة اليائسة :

---

(١) الديوان ص ٥٦١ ، ٥٦٢ .

ياوطنى منك نفضت اليــدا   فمن يحاول عنك دفع الردى
حاول أمرا دونه المستحيل

ولكن لا يبقى هذا اليأس كثيرا أمام هذه الروح القوية ، فعلى الفوز بقول مستنكرا بشدة الاستسلام لليأس ، وينفى موت وطنه نفيا مكررا مؤكدا :

لا . لا . ستحيا رغم أنف الزمن   بل أنت حى رغم هذا الكفن
مادام حر واحـد فى الوطن   فهو بهذا الحر حر وإن
عاش به مليون عبد ذليل(١)

وهذه الأبيات من قصيدة ودع بها مدينة (تنديل) من مدن الارجنتين وكان قد عاش فيها فترة سعد فيها كثيرا ، ولكنه وجد نفسه مضطرا أن يعود إلى البرازيل ، وفاء لأصدقائه من أهلها الذين طوقوه بالجميل ، ولكن أى جميل هذا الذى يطوق شاعرنا ، ويوثقه بوثاق متين ؟ إنه امتيازهم بحب الوطن وكم هى كبيرة تلك الروح التى تعترف لكل محب لوطنه — وطن المحب — بجميل وأى جميل :

تنديل ما لى حيلة بالفراق   وفى فؤادى منه ما لا يطاق
لكن (بيونسيرس) لى رفاق   أمسيت من معروفهم فى وثاق
ماقيد الأحرار إلا الجميل

قـد غمرونا بالفعال الحسن   وطوقوا أعناقنا بالمنن
من أجلهم ياقلبى اهجر عدن   أن الألى امتازوا بحب الوطن
كل كثير فى رضاهم قليل

ويقلده المحتفلون نيشانا على أثر الانتهاء من إنشاد هذه القصيدة فيعتبر هذا

---

(١) الديوان ص ٦٦١ ، ٦٦٢ .

النيشان تقديراً لحب الوطن عنده ، لا لشيء غيره ولذلك يقبله ويعتز به ، ولا يجد أعظم من هذا النيشان سوى ثقب فى صدره يفور منه الدم فى ساحة الشرف ، ميدان القتال فى سبيل الوطن .

يصوغ هذه المعانى على الفور فى ثلاث مخمسات(١) :

قولوا لعبد بالنياشين هام فباع لبنان بها والشام
ياصاح ماكل وسام وسام بمثل هذا فليباه الكرام
وليفتخر كل عزيز نبيل

يامن كسوت الصدر نيشانه قد زدتنى بين الورى شانا
وزدت من يخدم أوطانا فى شرف الخدمة إيمانا
ورغبة فى كل سام جليل

أكرم نيشان به أكرم تحسدنى من أجله الأنجم
ثقب بصدرى فار منه الدم إذا التقى المخزم واللهذم
بين الزغاريد وقرع الطبول

وفى الديوان قصيدة طريفة ، بعنوان (ليمونتى)(٢) تغزل فيها بليمونة ويطيل الكلام عن احتياله فى العثور عليها من عند بائع يطرق على الباب فى الصباح الباكر ، يقتنصها اقتناصا وهى ممعنة فى التخفى عنه وراء أوراق الشجر محمية بأشواك حادة ، ولا يترك هذا الجو بدون أن يتذكر وطنه الذى أصبح حراما على مثله من أهله الاقحاح ، حلالا مباحا لكل أمة ، ويتحرق شوقا متمنياً أن ينعش قلبه بعطرها الفواح فى الفيحاء وصيدا .

---

(١) الديوان . هامش ص ٦٦٥
(٢) الديوان ص ٦٨٠

يقول فى آخر القصيدة :

ليمونتى حبيبتى الشقراء ، هل يعود ... ينعش فى الفيحاء قلبى عطرك الفواح
وهل إلى صيداء لى قبل انحناء العود ... رجعى أوافيك على الإمساء والإصباح
والوعة النفس على فردوسها المفقود ... ودمعة الليث على عرينه المجتاح

ياليتنى كنت إليه مبعداً مردود
ياليت لى حرية الأرمن واليهود
فى وطن يشقى به أبناؤه الأفحاح
وهو لكل أمة ، إلا لهم ، مباح

ويشارك فى إحياء حفلة تأبينية ، أقامها الأدباء العرب فى صنبول لشاعر المهاجر الشمالى (إيليا أبى ماضى) فيحيل تأبين الشاعر هجوما عنيفا على الرئيس اللبنانى (كميل شمعون) وكان قد أظهر عمالته لأعداء العرب مؤلفاً حزباً غير شريف مع عميلين آخرين : ملك الأردن (حسين) وملك العراق (فيصل) ولقد عرض نفسه لخطر ماحق بهذه الجرأة ، ولكن كل شىء يهون فى سبيل العروبة ، لقد كان يحضر حفل التأبين قنصل لبنان ممثلا لحكومته وحكومتى العراق والأردن فلما رأى القروى . وسمعه يهاجم (كميل شمعون) و (حسينا) و (فيصلا) ممتدحا الرئيس جمال عبد الناصر — رحمه الله — بادر بالإبراق إلى حكومته فى لبنان للقبض على القروى والإساءة إليه ، واضطهاده ، وهو فى طريقه إلى الإقليم السورى وقد سجل هذه الحادثة فى قصيدة (عودة الشاعر) .

انظر إلى جرأته ، وإليه كيف يحيل المأتم ساحة كفاح قومى ضد أعداء القومية :

فى أول القصيدة ينكر على المؤبن دعوته إلى التفاؤل ، ويرى أنه لا مجال لذلك ، والحزن والبكاء أولى بالعيون . ولكن ، لم ذلك ؟ والجواب : ذلك

لواقع الأمة العربية المحزن المرير ، ثم لا يلبث أن يهاجم أعداء العرب ، والقومية العربية من العملاء الخائنين ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يرهب سطوة جبار ، ولا غدر لئيم :

إن جاءك الحق المبين بآية ... فلها ولو ملأت كئوسك علقما
قل للذى ملأ البلاد جرائما ... من لم يسمك مجرماً يك مجرما
مازدت فلسفة تزدنا خيبة ... ويزدك أحرار العباد تهكما
ترضى اليهود وأنت تزعم حربهم ... والله لم نر منك أكثر مزعما
أو (لابن غريون) تمد رقابنا ... أرأيت خنزيراً يذلل ضيغما
أنسير فى ركب الحسين وفيصل ... وتخون (ناصرنا) الأبر الأكرما
عرشين : هذا لا يساوى درهما ... وعليه ملك ليس يملك درهما
وقياد ذا فى كف قاتل جده ... وأبيه ، باللعاجزين كليهما(١)

وفى مساء الأول من أكتوبر سنة ١٩٥٨ يقيم منتدى سكينة فى دمشق حفلة استقبال تكريماً للأمير صقر بن سلطان القاسمى حاكم الشارقة وتوابعها ، ويشارك القروى فى هذا التكريم ، فيرحب به فى قصيدة يستهلها بالبيت الآتى(٢) :

مرحباً بالأمير العربى القح ... بالشاعر الرقيق المفوه

ويختمها بهذا البيت :

ربى انصر صديقه وصديق ... العرب ، واسحق عدوهم وعدوه

فما مبرر الترحيب بالأمير صقر عند شاعرنا ؟ أنه (العربى القح) ، وأنه صديق (جمال عبد الناصر) الذى :

---

(١) الديوان / ٧١٢ .
(٢) الديوان / ٧١٩ .

عقـــر الظالمين فى القـرب وانتاش المظالم من قرارة هوه
جمع الشـمل بعد طول شـتات فالتقينا على صـعيد الأخـوة

ومبرر الدعاء بالنصر للأمير فى الختام صداقته لجمال وللعرب . وإذا كان النصر لا يتم إلا بسحق عدو الأمير فليسحق عدوهم (عدو العرب) وعدوه .

إنها العروبة سرت فى دمائه ، وتغلغلت فى أعمق أعماقه ، فإذا أحب أحب من أجلها ، وإذا كره كره من أجلها ، وإذا مدح فلأن الممدوح يمت إليها بصلة . وإذا هجا فلأن المهجو عدوها .

وهو مغرم بالطبيعة ، يحبها فى شـتى حالاتها ، يخرج فى ليـلة عاصفة مرعدة ممطرة ، ليتمتع نفسه الثائرة بهـذه الطبيعة الثائرة ، حتى إذا أسفر الصبح عن سماء صافية ، وشمس مشرقة ، فـاذا تتركه فى نفسه هذه الطبيعة بحالتها ؟

إنه لا ينسى الفتن الثائرة فى بلاده (الشرق) ويرجو لها نهاية مشرقة مثل صباح هذه الليلة العاصفة ، ويخاطب الأعصار الذى يغير من وجه الطبيعة متمنيا أن ينفض غبار الذل عن وطنه :

يأيهـا الأعصـار كالفتن فى الشرق ذات النار والدخن
ينقض فى اللجات مبتلعاً ويطـوف بالغابات مقتلعاً
ما أنت إلا لهفـــة الزمن
إن كنت تمحو بعض ماطبعا فانفض غبار الذل عن وطنى(١)

ويحل عيد الأضحى فيثير فى نفسه معانى التضحية والفداء فى سبيل الوطن ، فيصرخ بهذه الصيحة — وهو المعجب بالإسلام وبشعائره :

ما أضاحى عرفات ومـــنى بل ضحايا الشام بالمجد غنية

---

(١) الديوان / ٢٠٨ .

ليس من ضحى بكبش غنم مثل من ضحى بنفس بشرية
أين من أدى زكاة من فتى جاد للأمة بالروح الزكية

ثم يختم قصيدته بقوله :

رحمة الله على كل فتى عربي راح للعرب ضحية
وليعد فينا وفي أعقابنا عيد ايمان بدين الوطنية(١)

هذه أمثلة من شعره القومي الذي لم تكن القومية غرضا أساسياً له ، وإنما هي خواطر قومية تثيرها في نفسه شتى الأغراض ومختلف المناسبات ، ونحن لا نعجب للشاعر القروي يتخذ من القومية العربية مركزا يدور حوله كل شعره ، فهو شاعرها الذي اتخذها ديناً وعقيدة .

أما قصائده التي قصد بها إلى القومية مباشرة فكثيرة لا تكاد تحصى ولو ذهبنا نتقصاها لضاق بنا المجال ، فلا بد إذن من الاكتفاء بالأمثلة .

ودراسة شعره القومي لا تسفر عن حب عميق للقومية العربية فحسب ، بل تثبت اعتزازاً بها وإيماناً ينبان عن شخصية قوية ممتازة .

ينشد قصيدة معجبة ، تثير إعجاب بعض الفتيات الغربيات ، فيحطن به بعد الانتهاء من إلقائها معجبات ، وكان ذلك حرى بغيره أن يرتاح له ان لم يعتز به ، لكنه وهو عربي أبي لا يتأثم أن يوقف هؤلاء المعجبات في مكانهن عند اقدام ابنة العرب :

بنـــات الغـرب قلبي عنـ ـد أقدام ابنـــة العرب
فلا تطمعن في حـــلم من القـروي بالحب
نفـــور فيَّ منـــكن غـريب يا ابنـة الغـرب

---

(١) الديوان / ٢٤٥ .

فسبحان الذى شاء　　فأنا آكن عن قلبى(١)

فما الذى جعله ينفر من بنات الغرب ، ولماذا أنآمن عن قلبه ، ويرتاح لذلك حامدا ربه ومسبحه ؟ بل ما الذى يملؤه اعتزازا بابنة العرب حتى يقبل وضع قلبه عند أقدامها ؟ إنه العزة القومية التى تمكنت منه فملكت عليه مشاعره وأحاسيسه حبا وقوة .

ومن المسلم به أن القروى أكبر شعراء القومية العربية ، ولم يبلغ هذه الدرجة السامية عن مقدرة فنية فى نظم الشعر وإرسال صور البيان فحسب بل بلغها — وفى المقام الأول — لما كان يتمتع به من صدق عاطفى فى قوميته ، فقد نشأ على حبها ، واعتز بميراثه منها ، ولما عاشت أمته تجارب حياة قاسية كان هو أشد الناس شعوراً بقسوتها ، ومعاناة لآلامها ، وفى أحيان قليلة كانت تبرق بعض آمال للأمة العربية وسط ظلام أيامها الدامس فما أسرع ما كان يستجيب لهذه الآمال الحلوة ودواعيها فرحاً وابتهاجا وتفاؤلا ، واعتزازاً أيضاً . ومن هنا كان شعره القومى ثمرة تجارب حياة ، ومعاناة حقيقية ، وكان ذلك تفسيراً كافياً لهذا الفيض العميم من أشعار القومية الزاخرة بمظاهر القوة والإبداع .

كان بعض الشعراء يندفع لقول الشعر القومى فى الأحداث القومية مشاركة منه فى مشاعر الأمة ، أو استجابة لعاطفة استثيرت ففارت عند حادثة معينة فلا غرابة أن افتقدنا العمق والصدق العاطفيين بالقدر المتوفر منهما عند شاعرنا وكان بعضهم قديراً على نظم الشعر فنا وصنعة ، وبلغت به درجة الإجادة الفنية أن صار أمير الشعراء مثل شوقى ، قال فى مناسبة قومية :

كان شعرى الغناء فى فرح الشر　　ق وكان العزاء فى أحزانه

---

(١) الديوان ص ٣٠٤

قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقى على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه فى عمانه
نحن بالفكر بالديار سواء كلنا مشفق على أوطانه

معنى جميل فى مناسبة تعاطفت فيها مشاعر أبناء العروبة ، وتعاطف معهم الشاعر ولكن أين هذه العواطف القومية التى ثارت عندما أثيرت بالمناسبة من عاطفة شاعرنا القروى التى كانت دائمة الالتهاب بدون انقطاع ، وبغير انتظار للمناسبة ، بل كانت تخلق المناسبات خلقا ؟

كثر الكلام مع اللبنانيين ، وحول اللبنانيين عن مدى عروبة لبنان ، وعن تشيعه لفرنسا وكان شاعرنا لبنانيا ولكنه عربى يرفع هذا الشعار :

عش للعروبة هاتفا بحياتها ودوامها(١)

فأخذ يسدى النصح للبنان ، ويحضه على التمسك بالعروبة ! فهو منها وبها ولها ، وهو إن كان ذا كيان مستقل إلا أنه يقع فى أحضان الشام ، وركن من أركانه . أما فرنسا فالسير فى ركابها غير مأمون ، ولا يأتى بغير المحن والشرور وإفقار البلاد ، ولا تغتر بالظاهر من حضارتها فانهم بسلوكهم سيجرون الفناء إليها .

وهو فى قوميته منصف غير متعصب .

وامدد يمين الحب يا لبنانها لشآمها
أنظر إلى آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمت معظمه إلى إسلامها(١)

وفى ارتباط مصير لبنان بالشام ، وعن طريقه بالوطن العربى كله يقول موجها اللوم إلى أولئك الذين يبرءون من العروبة :

---

(١) الديوان ص ٣١٠

مالى أراك برئت من دمها ومن أوطانها
أنسيت أنك ليث نهـ ـضتها ولمر بيانها
أتقول! لست من الشا م وأنت فى أحضانها
أتهد ناطحة النجو م وأنت من أركانها ؟ (١)

ويحاول بث الثقة فى نفس ذلك العربى المتمرد على عروبته ، المغرور به عن طريق البرج الفاسد من الحضارة التى تحمل فى ثناياها عوامل فنائها فيعقد موازنة بين الحضارتين : العربية والغربية فى أبياته الآتية منتهيا إلى أن حضارة العرب هى الحضارة الحقة التى قامت على الأخلاق والنبل أما حضارتهم فمصيرها إلى زوال ، ستقضى على نفسها بنفسها ، وكيف ينجح هؤلاء ، وكيف تعمر بهم حضارتهم ، وكيف ترضى عنهم السماء والجحيم يرفضهم ويأباهم ؟

أنظر أيها العربى إلى آبائك وأجدادك ، الذين أقاموا حضارة ، ومدنية بالبطولة والعلم على أسس متينة من النبل والهدى :

هلا ذكرت فتوحهم بالمشرفية والقـــلم
أيام هزوا للعلا والـ ـعلم فى الغرب العلم
جمعوا الذكاء إلى الوفا ء إلى الإباء إلى الشمم
قهروا العدى ، نشروا الهدى رضعوا الندى بدعوا الكرم (٢)

أما أولئك الغربيون ، وفرنسا مثال لهم ، فانهم :

سيجر عزرائيـل فـــو ق ربوعهم ذيـــل الفناء
ويطهر الشيطان ما اخـ ـترعوا بما اخترعوا هباء

---

(١) الديوان ص ٣١٠
(٢) الديوان ص ٣١٠

ويطهر الآفاق من عقبانهم نسر الفضاء
من كان تأباه الجحيـ ـم فكيف ترضاه السماء(١)

وفى إقناع منطقى يخاطب المضللين من أبناء جلدته موضحاً لهم ما حل بالبلاد من خراب ودمار وفساد فى عهد الاستعمار الأجنبى :

قل لى بربك هل رجـ ـت من الغريب سوى المحن
وفروغ جيبك واليديـ ـن وقتل روحك والبدن
كانت تدر الشهد أر ضك والسلافة واللبن
فغدا الوقوف علـى ربو عك كالوقوف على الدمن(٢)

ويظهر الاعتزاز بالقومية فى أجلى صوره فى تلك الثقة الكبيرة فى أمته ومستقبلها ، حتى يطلب من الشباب فى وطنه أن يشيد مدنية عظيمة تعتمد على الحق المتين ، يشيدها على أنقاض الأجنبى المستعمر فى بلاده ، بل فى بلادهم أيضاً لأن العربى بما يتمتع به من قيم وحسن فعال جدير بالتمدين من دون الناس أجمعين :

شيد علـى أنقاضهم مدنية الخلـق المتين
فلأنت بالتمدين دو ن الناس أجمعهم قمين (٣)

فأى إيمان يملأ هذا القلب الكبير ؟ إنه يتصدى لتيار قوى فيصده وكان كل ما يستطيع قومى غيره أن يتغنى بأمجاد الماضين ، وأن يحث قومه على إحياء هذه الأمجاد حتى يلحقوا بركب الحضارة الغربية ، أما شاعرنا فتبلغ به الثقة والاعتزاز أن يهاجم الغربيين فى مدنيتهم ، وأن ينال بحق من حضارتهم

---

(١) الديوان ص ٣١١ ، ٣١٢
(٢) الديوان ص ٣١١
(٣) الديوان ص ، ٣١٢

التى شابوها بما ينغصها وينقص من قيمتها ، ناظراً إلى أمته بمنظار التفاؤل متوقعاً لها حضارة سليمة ومدنية حقة .

ويلقى خطاباً فى يوم عيد الوحدة الأولى بين مصر وسورية فى الثانى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٦٠ م فيفيض السرور من قلبه ، ويرى فى هذه الوحدة حلماً تحقق ، وأملا ـ وقد ناله ـ ليس بعده أمل ، ولا يطلب من دنياه شيئاً آخر بعد أن جادت له بما يريد ، كل يريد .

وإذا كان بعض الناس قد أطلقوا عليه قديس القومية العربية فهو قديسها بحق ، يقدسها فيفتتح باسم العروبة بعد اسم الله ، ويسبح لعيد الوحدة بعد تسبيحه لله . ولقد نشأ على حبها ، وانشرح لها صدره وهو طفل صغير ، وصدر الحر لا ينشرح إلا بذكرها ، وينسى الآلام التى قاساها فى طلب الوحدة والدعوة إليها عندما يغمر قلبه الفرح بتحقيقها ، يكفيه اسم الوحدة فينتشى به ، ويتمثل ، ويشارك الشعب العربى فرحته ، واسم الوحدة يتردد صباح مساء على لسان رائدها . وما أكثر آلامه وجروحه إلا أنه يسامح الدنيا ، ويصفح عنها مهما سببت له من آلام وجروح ما دام قد جادت له بأغلى أمانيه وأحلاها ، فتسقط دعواه ضدها .

وهذه الأبيات ضمنها ديوانه(٢) ، ولا أستطيع مقاومة الإغراء بذكرها كاملة لما تنطق به من صدق العاطفة القومية .

باسم العروبة بعد الله أفتتح ... لله ، ثم ، لعيد الوحدة السبح
شرحت صدرى بها طفلا وهل بسوى ذكر العروبة صدر الحر ينشرح؟!
كم جرعتنى ليالى بؤسها ترحا ... فحن فى ليالى عرسها الفرح
حسبى اسمها يا نديمى إننى ثمل ... كالشاربين ولا خمر ولا قدح

---

(٢) الديوان ص ٧٣٣ .

أما سمعت (جمالا) وهو يسفحه   والشعب مغتبق منه ومصطبح
أسقطت دعواى يا دنيا فهاك يدى   لم يبق لى ألم يشكى ولا جرح

والشاعر القروى عندما ينشد قومياته إنما ينشدها عن معاناة نفسية وتجربة ذاتية صادقة ، لذا بلغ القمة فى هذا اللون من الشعر ، وأمامى الآن بيتان له يهيب فيهما بقومه أن يهبوا للتحرر ودفع الظلم ، وبيتان آخران لشاعر مهاجر آخر هو الشاعر (الياس قنصل) فى المعنى نفسه ، ولكن شتان مابين القولين ، تلمح فى بيتى القروى قوة وصدق عاطفة ويظهر جليا أن مبعثهما صدق المعاناة ، والتجربة الذاتية التى كان يعيشها الشاعر . أما فى بيتى (الياس قنصل) فلا ترتفع درجة الحرارة بالقدر الموجود عند القروى ، حتى لتحس فيهما ببرودة الكلام المنثور أكثر مما تشعر بحرارة العاطفة الشعرية.

يزفر القروى زفرة حرى أحرقت كبده قبل أن تصك أسماع السامعين فتلهب عواطفهم :

أهيب بهم فـلا ألقى سميعا   كأنى المنـادى والمنـادى
ألا ذوقتهم ألمى فثاروا   فياربّاه لست أنا البلادا(١)

تألم ألما فثار ، ويطلب من قومه أن يثوروا ، ، ولكن بدون جدوى ، لذا يرجو من الله أن يذيقهم من الآلام مثلما ذاق هو حتى يثوروا .

والياس قنصل الذى يكتب ديواناً كاملا فى المناسبات الوطنية بعنوان (السهام) يطالب من بلاده أن تهب لدفع الذل عنها ، ولكنه يسوق نصيحة نظرية ليس فيها الاحساس بمعاناة التجربة ، ومن هنا سرى البرود العاطفى فى البيتين :

طفح الكيل يابـلادى فهبى   إن هذا الإغضاء أدهى العوادى

---

(١) الديوان ص ٢٨١

مر عهد عليك فيه جرعت الـ ـموت مليون مرة بانقياد(١)

ويظهر الصدق العاطفى فى القومية عند القروى نابعا من تجربة ذاتية ومعاناة نفسية فى الأبيات الآتية يخاطب بها قومه ملحا عليهم أن يستجيبوا لدعوته بعد أن يحسوا بآلام وطنهم كما يحس هو . إنه ليتساءل عن سر هذا الإحساس القومى عنده ، ما الذى يطلبه ؟ هل هو غيرة منه على الوطن المبتلى ، أم فضولى ؟ وعلى كل حال فان ما يطلبه من قومه قد ألزم به نفسه وحمل عبأه حتى ثقل عليه وهشم ساعديه :

أفضول ياترى أم غـيرة أوفرت ظهرى وهدت منكبيا
أنحلت علة غيرى جسدى وأسالت كبدى من مقلتيا
يابنى أمى ... هـل كلفتكم حمل عبء لم يهشم ساعديا (٢)

إنه قبل أن يطلب من مواطنيه العمل القومى ،عانى هو تلك القومية وعاش أحداثها ، واصطلى آلامها . إن سر ما نشعر به من جمال فى هذه الأبيات ليس إجادة تعبير فنى ، فالقيم التعبيرية الشعرية هنا تكاد تكون عادية ولكن الصدق العاطفى ، وليد التجربة الذاتية والمعاناة النفسية — مصدر جمال فى هذه الأبيات وكثير غيرها من الشعر القومى عند القروى .

ويمتاز الشاعر القروى بأنه لا تأخذه فى قوميته لومة لائم ، ولا يجامل فيها أحداً ، ولا يغض نظره عنها لأى اعتبار ولو كان قداسة الأديان .

إنه عربى ، وهو عربى قومى ، العزيز عنده من يعتز بالعروبة ، والمقدس لديه من يقدس العروبة .

إنه وطنى يحب وطنه ، وبخاصة مسقط رأسه ، لبنان ، ولكن أهله يسلكون مسلكا غير قومى إزاء الاعتداء الفرنسى على الشام بعد الحرب

---

(١) أصنام الأدب ص ٣١ (٢) الديوان ٢٤٢

العالمية الأولى ، فلا يمنعه حبه للبنان من مهاجمته صراحة ، وتأنيب أبنائه بقسوة لا يهادن فيها ولا يجامل . اقرأ له هذه الأبيات لترى كيف يهاجم لبنان وطنه الحبيب :

بلادى ضللت سبيل الرشاد
وهمت من الدين فى كل واد
فيا أم كل نبى وهاد
بربك هل عرفت الجهاد
ولو مرة فى سبيل الوطن ؟(١)

وتشتد قسوته ، ويعنف فى تأنيبه لأبناء وطنه الذين رضوا باحتلال الأجنبى ، فلا يتوانى فى أن يسوق إليهم هذا التوبيخ القاسى .

ألم تبق فيكم بقية دم ؟
ألا تشعرون بجمر الندم ؟
ألا تبصرون شقاء الوطن؟

وفى نهاية القصيدة بلغ به السخط القمة ، فيزفر هذه الزفرة :

إلهى بلينا بقحط الرجال
أما من فتاة لهذا الوطن

بل إن الاعتبارات الدينية نفسها لا قدسية لها عنده إذا هى تعارضت مع متطلبات القومية ، إنه يهاجم مسيحيى لبنان ، لأنهم لم يشاركوا إخوانهم المسلمين فى الثورة ضد الفرنسيين ، وسجل هجومه هذا فى أكثر من قصيدة

---

(١) الديوان ص٢٦٧ .

من قصائد ديوانه ، ونذكر على سبيل المثال أبياتا من قصيدته : (سلطان الأطرش والتنك)(٢) أنه يمدح سلطان الأطرش فى هذه القصيدة وهو مسلم لأنه شفى غليله — بشجاعته النادرة — من الفرنسيين ويقول فيه هذا البيت :

فيالك (أطرشا) لما دعينا   لتأركان أسمعنا جميعا

ثم يبدأ فى كل الهجاء لأهل دينه من المسيحيين ، لأنهم جبنوا ، ولم يؤدوا للقومية حقها :

فى الهيجاء لاتعتب علينا   وأحسن عذرنا تحسن صنيعا
تمرستم بها أيام كنا   نمارس فى سلاسلنا الخضوعا
فأوقدتم لها جثثا وهاما   وأوقدنا المباخر والشموعا

وترتفع حرارة غضبته على المسيحيين حتى تبلغ درجة لايتورع معها أن يهاجم المسيحية نفسها ، لأنها تدعو إلى التسامح والسلام مع الأعداء ، وهذا المنطق لايقنعه ، ولا يتلاءم مع روحه القومية الثائرة ، فيلجأ إلى تعاليم الإسلام معترفا بجدواها فى هذا المقام ، مقام المعتدين وتحرير الوطن منهم فيقول :

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب   بسيف محمد واهجر يسوعا
وأحبوا بعضكم بعضاً ، وعظنا   بها ذئبا فما نجت قطيعا
، فيا حملا وديعا ، لم يخالف   سوانا فى الورى حملا وديعا
غضبت لذات طوق حين بيعت   ولم تغضب لشعبك حين بيعا
ألا أنزلت إنجيلا جديدا   يعلمنا إباء لاخنوعا

---

(١) الديوان ص ٢٤٢

شفعت بنا أمام أب رحيم وما نحتاج عند أب شفيعا
أجرنا من عذاب النير لامن عذاب النار إن تك مستطيعا

ولقد جرت عليه صراحته تلك كثيرا من المشكلات ، وعرضته لهجمات قاسية من أهل دينه المتعصبين ، وكان يعرف هو ذلك مقدما بلاريب ، ولكنه متى يعترف بدين يبعده عن قوميته ؟ أنه يعتنق القومية ، وذلك يكفيه . يقول فى نهاية قصيدة بعنوان (عيد الأضحى)(١) .

وليعد فينا وفى أعقابنا عيد إيمان بدين الوطنية

فالوطنية عنده دين يؤمن به .

ويقف مرة ينشد قصيدة فى عيد الفطر(١) فيقول فى أبياتها الأخيرة :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر يتيه بآيات النبى المعظم
ولكننى أصبو إلى عيد أمة محررة الأعناق من رق أعجمى

إنه يكرم عيد الفطر لأنه يعتز ويفخر بالنبى المعظم ، ولكن ما يصبو إليه حقا هو عيد الحرية لأمته . وعيد الوحدة التى تجمع بين العرب أجمعين لافرق بين مسيحى ومسلم :

إلى علم من نسج عيسى وأحمد و (آمنة) فى ظله أخت (مريم)

ثم يكشف فى صراحة مدهشة عن دينه المفضل ، دين الوحدة والقومية :

هبونى عيدا يجعل العرب أمة وسيروا بجثمانى على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

---

(١) الديوان ص ٢٤٥ .
(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

ولقد دهش كثير ممن قرأوا هذه الأبيات لتلك الجرأة على الدين ، ووجد خصومه من المتعصبين فيها مبررا للطعن فى تدينه ، ولكنه عندى مؤمن تمام الإيمان ، فإن أى دين سليم إنما يدعو للوحدة ، وهو هنا لايهاجم دينا إنما يهاجم التفرقة أياكان مصدرها ، فلا يصح لأحد أن يدعو بدعوتها ولو باسم الدين . إن مبرر صيحته هذه ، وجرأته عبر عنه بنفسه فى أحد أبيات القصيدة نفسها ، وهو بيت يتوسط البيتين الأخيرين :

فقد فرقت هذى المذاهب شملنا وقد حطمتنا بين ناب ومنسم

والقروى فى قوميته كان نافذ البصيرة ، ثاقب الفكر ، فلم تلهه عنها فى أى فترة من فترات حياته تلك النظرات الضيقة لقوميات إقليمية ضيقة ، وكثيراً ما وجدنا أدباء من العرب فى الوطن وفى المهاجر يغنون بقومية إقليمية فينيقية أو كردية أو فرعونية ، وهذه الدعوة إلى تفتيت القومية العربية إلى قوميات أو كردية أو فرعونية ، وهذه الدعوة إلى تفتيت القومية العربية إلى قوميات إقليمية وإن لم تعمر طويلا إلا أن الفضل للقروى وأمثاله من الذين لم تنطل عليهم هذه الدعوات الاستعمارية المشبوهة فرفضوها من البداية ووقفوا حياتهم وفنهم على الدعوة للقومية العربية الشاملة . وإذا كان أحد المعتزين بالقومية الفينيقية وهو الشاعر (شكر الله الجر) يقول مفاخرا بحضاره الفنيقيين البحرية ، واختراعهم لحروف الهجاء :

مجد على المجداف هل هلاله وضياؤه
ومشى وحرف الأبجدية فى العصور لواؤه
حتى انتهى فاذا به دون الشعوب علاؤه(١)

---

(١) مجلة العصبة ٥٠٤ سنة ١٩٥٣ ص ٢٤٨ .

فان الشاعر القروى يصيح بأعلى صوت :

لتحى جميع البلاد التى تمت إليها بأقوى سبب
وقبل الجميع ، وبعد الجميع وفوق الجميع ليحى العرب

حقا قد نجد للقروى تغنيا بحب لبنان ، ولكنه حب الوطن الصافى الذى لا يلمح فيه تعصب ضد بقعة أخرى من بقاع وطنه الكبير ، ولا دعوة لقومية إقليمية عنصرية ضيقة . يقول :

غرست بلبنان ورد الأمل فقل للمهاجر أن يعجلا
وجدت عليه بمزن المقل فقل للامازون أن يبخلا
وحليت قلبى (بنبع العسل) فقل لليالى أمطرى حنظلا

إلى آخر هذه القصيدة التى ضمنها ديوانه(١) بعنوان :(الرجاء الوطنى).

وفى القصيدة التى سبق ذكرها يحيى فيها وزير لبنان المفوض لدى الارجنتين (جبران تويني) : يقول :

وأكسبت لبنان حب الأخوة والحب أثمن مايكتسب
ومن حب لبنان حب الشام وحب العراق وحب وحب
وما المرء إلا بإخوانه إذا الكون بالحادثات اضطرب

أن حب لبنان يكون معه حب الشام والعراق وغيرهما من أرجاء الوطن العربى ، وهذه نظرة واقعية يقرها العقل والمنطق (وما المرء إلا بإخوانه) وتحتمها ظروف العصر وضروراته (إذا الكون بالحادثات اضطرب) .

هذه هى الوطنية الواعية التى تذوب فى القومية الواسعة القديرة .

---

(١) الديوان ص٢٤٦ .

ولقد نجد فخرا بالحضارة الفنيقية فى قصيدة للقروى ، ولكنه أى فخر؟ إنه فخر من يعتز بأمجاد قديمة من حقه أن يعتز بها أمام المبهورين بحضارة الغرب ناسين مالهم من تليد أمجاد ، ثم يبادر فيضيف إلى تليد أمجاده الفنيقيين طريف آبائه العرب فى عهد نبوتهم العظيمة ، بل يجعل العهد العربى الإسلامى هو العهد الأهم :

نحن الألى سدنا الشعو ب ونحن مدنا الأمم
أعطاهم الله اللسا ن ونحن أعطينا القلم
خضنا البحار زمان لم يك ظل سابحة بيم

وهذه هى الاشارة للحضارة الفينيقية التى اعتمدت على اختراع حروف الهجاء والقوة البحرية التى غزت كل شط ، ولما نامت عيون الفنيقيين بعد التعب لم يطل نومها ، بل :

استيقظت مسحورة تستقبل العهد الأهم
نور النبوة فاض من مهد المروءة والكرم

وهكذا يربط بين الحضارتين ، وموحدا أصلها ، مكملة ثانيتهما لأولاهما فأصحاب الحضارة الأولى استيقظت عيونهم على حضارتهم الجديدة وبذلك يكون القروى قد اهتدى إلى تلك الفكرة التى يؤيدها الباحثون المحققون من أهل أقطار العالم العربى يرجعون إلى أصل واحد وجنس واحد .

ويحلو للبعض أن يحمل على شعراء المهاجر متهما إياهم بأن تعصبهم للقومية العربية لم يكن عن إيمان بها بقدر ماهو موجه لمحاربة الاسلام ، ونحن هنا لسنا فى مقام تمحيص هذه الدعوى ، وربما كان هذا القصد السيىء متوفرا عند بعض أدباء المهاجر من غير المسلمين ، ولكن الذى يعنينا هنا معرفة حقيقة مشاعر القروى نحو الدين الاسلامى ونحو القومية العربية . ومدى اتصال هذين الأمرين بنفسه .

القروى مسيحى الديانة وهو قومى النزعة ، ولم يدع مسيحيته تؤثر على قوميته ، ولقد استطاع بحسن نيته . وطهارة طويته أن يلائم بين الدين والقومية ولم يدع للتعصب الدينى أدنى فرصة لينال من شعوره القومى العربى كذلك لم يحاول الاحتيال على القومية العربية حتى يباعد بينها وبين دينها الإسلامى كما حاول غيره من رفاقه شعراء المهاجر من مثل الشاعر (مسعود سماحه) الذى حاول تجريد العروبة من الإسلام فى مقال له نشر فى مجلة العصبة (١) يقول فيه : « ... وقد أوشك المسلم أن يدرك أنه عربى قبل أن يكون مسلما وأن العروبة أصل والاسلام فرع ... وأوشك المسيحى أن يقفه أن العروبة لا تنتسب إلى الإسلام ولا إلى المسيحية ... »

لم يحاول القروى تكليف الأمور غير طباعها ، ولم يدع شيئا من التعصب غير الواعى يعكر عليه قوميته ، بل تقبل بسهولة ويسر حقيقة العلاقة القوية المتينة بين القومية العربية والدين الإسلامى ، وقبل برحابة صدر أن يعترف بدور الدين الإسلامى ، ودور نبى الإسلام فى إقامة كيان العرب ، وخلق دولتهم والارتقاء بشأنهم ، ولم يجد غضاضة أن يقول صراحة :

عش للعروبة هاتفا بحياتها ودوامها
انظر إلى آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمت مع ظمه إلى إسلامها

وببراعة فائقة . وذكاء لماح استطاع أن يقيم من القومية عامل تجميع وتوحيد ؛ لا تفرقة ولا تعصب ضد دين من الأديان . فالعروبة دينه الذى وقف عليه حب قلبه . إنجيله محبة أهلها . وقرآنه الذود عن حرماتهم . وبذلك يثور حماسة . ويتسامح حنانا . وبذلك أرضى محمدا والمسيح . ثم يتوجه إلى العرب مسلمين ونصارى مهيبا بهم أن يسلكوا مسلكه يدينون بحب العروبة حتى يتوحدوا ويقووا ويجددوا ملكهم القوى القديم :

---

(١) العدد ٢ أغسطس ١٩٤٨ ص ١١٤ .

إنى على دين العروبة واقف　　قلبي على سبحاتها ولسانى(١)
إنجيلى الحب المقيم لأهلها　　والذود عن حرماتها فرقانى
أرضيت أحمد والمسيح بثورتى　　وحماستى وتسامحى وحنانى
يامسلمون ويانصارى دينكم　　دين العروبة واحد لا اثنان
بيرونكم كدمشقكم ودمشقكم　　كرياضكم . ورياضكم كعمان
ستجددون الملك من يمن إلى　　مصر إلى شام إلى تطران

وغنى عن البيان أن مقصد القروى بالدين هنا هو المذهب السياسى فلا تتضمن إشادته بالقومية والعروبة إلى حد استعمال كلمات التدين والقداسة إنه يسمى إلى الدين بصفته شريعة إلهية أيا كان هذا الدين .

(١) الديوان ص ٤١٤ .